أهمية التقريب بين المذاهب

أ.د. أحمد عمر هاشم(*)

إن أهم ما يجب أن تعنى به أمتنا الإسلامية هو توحيد صفها وجمع كلمتها، فالفرقة والاختلافات من أخطر ما تتعرض له الأمم؛ إذ إنها تضعفها وتوردها موارد الهلاك، وتجرئ الأعداء عليها.

ولا شيء أخطر على الأمة من أن تُؤْتَى من داخلها، وأن تتنازع فيما بينها، وأن يحدث صراعٌ في كيانها الداخلي، وأشد من ذلك خطرًا ما يكون متصلًا بعقيدتها وعبادتها، فتتفرق الأمة إلى جماعات وفرق لا رابطة تجمعها، ولا عقيدة تُوحِّدُها؛ بل إن كل فرقة تتخذ لنفسها طريقًا مخالفًا لغيرها؛ فتضعُف الأمة، وتتداعى عليها الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، كما قال ﷺ: «يُوشِكُ أن تَتَدَاعَى عَلَيْكُم الأُمَمُ كَمَا تداعى الأَكَلَةُ إلى قَصْعَتِهَا، قيل: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟! قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غُثاء كغُثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن، قيل: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حُبُّ الدُّنيا وكراهية الموت»(١).

ومن أجل ذلك وضَّح القرآن الكريم أهمية اجتماع الأمة واتحادها؛ فردَّ الإنسانية جمعاء إلى أصل واحد، وأب واحد، وأم واحدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ (الحجرات: ١٣).

ويُجمِّع الأمة الإسلامية اتجاه واحد بالعبادة إلى إله واحد لا شريك له، ونبي واحد ختم الله به الأنبياء والمرسلين، وقبلة واحدة يتجهون إليها في الصلاة في كل يوم خمس مرات، وأمر الله المسلمين إذا اختلفوا في أمر من الأمور أن يرجعوا إلى كتاب الله وإلى سُنة رسول الله ﷺ، كما قال: «تركت فيكم ما إن تمسكتم بهِ لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسُنتي»(٢).

(*) عضو هيئة كبار العلماء.

(١) أخرجه أبو داود في السنن، من حديث ثوبان رضي الله عنه، برقم: ٤٢٩٧.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن، من حديث زيد بن الأرقم -رضي الله عنه- برقم: ٣٧٨٨.

وإذا رجعوا إلى الله ورسوله أو كتاب الله وسُنة رسوله ﷺ، فلن يكون بينهم خلاف؛ لأن الخلاف إنما ينشأ بسبب البعد عن الله ورسوله، وعن الكتاب والسُنة، فحيث بعُد الناس عن ربهم ورسولهم أفسحوا المجال لأعدائهم ليتدخلوا فيما بينهم، وتدخُّل الأعداء يؤجج الخلاف والصراع داخل الأمة، وعندما تضعُف يبدأ أعداؤها يحصدون نتائج هذا الضعف والخلاف.

وقديمًا حاول أعداء الأمة الوقيعة بين الأوس والخزرج، وحاولوا تفريق الأمة بعد أن جمعها الإسلام على التوحيد والإيمان، ولكنهم ما إن أثاروا الفتن بين المسلمين وذكَّروهم بيوم بُعاث، وبما كان من حروب وكروب؛ إلا وقد علم النبي ﷺ بما حدث، فأتاهم وقال لهم: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! دعوها فإنها مُنْتِنَةٌ»(٣)، فثابوا إلى رشدهم وبكوا وعانق بعضهم بعضًا.

وأمرهم القرآن بأن يعتصموا بحبل الله جميعًا، فلا يعتصموا بشرق أو غرب؛ بل بدين الله، وكتاب الله سبحانه، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

فإذا نظرنا مثلًا إلى أغلب الخلافات بين المسلمين، لا نراها خلافات في أصول الإيمان والعقيدة، ولا في أركان الإسلام ودعائمه، ولا فيما عُلِمَ من الدين بالضرورة؛ بل نراها خلافات في الفروع، وأكثرُها بين ما هو أولى أو خلاف الأولى، وهي خلافات أفرزتها العزلةُ والتباعد بين الناس، وصنعتها الأوهامُ.

ومما لا شك فيه أن أهم أسس التقارب بين المسلمين: أن يحققوا القاعدة التي وصفها الشيخ رشيد رضا -رحمه الله- بالقاعدة الذهبية، وهي: «أن نتعاون فيما اتفقنا عليه، ويعذر بعضُنا بعضًا فيما اختلفنا فيه»، والتقارب والتلاقي من أهم أسس العلاج، أما أن نخفي الخلافات أو نتستر عليها؛ فهذا لا يؤدي إلى العلاج، ولا إلى التقارب؛ بل يؤدي إلى الجفوة وإلى تفاقم الخلافات كالمريض الذي يتوهم السلامةَ فيزداد مرضُه.

وأهم وسائل التقريب بين المذاهب: لقاءات العلماء وزياراتهم بعضهم لبعض، والقضاء على أية حركة فيها إثارة للخلافات والفتن؛ بل تعمل الأمة على نشر ثقافة التسامح والتواصل والمودة.

ومن وسائل التقريب بين المذاهب: لزوم جماعة المسلمين، وألا يخرج أحد من الطاعة، أو يفرق الجماعة؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات مِيتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عِمِّيَّة يغضب لعصبة أو، يدعو إلى عصبه أو ينصر عصبة، فقُتل؛ فقِتلة جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشا

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤).

من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه»[٤].

لقد قرر القرآن الكريم أن الأمة الإسلامية واحدة: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ (الأنبياء: ٩٢)، وحرصًا على التئام شمل الأمة، أمر الله -تعالى- بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ونهى عن التنازع الذي يترتب عليه الفشل، فقد قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال: ٤٦)، ونهى الرسول ﷺ عن قتال المسلمين بعضهم لبعض؛ لأنهم إن بلغوا هذه الدرجة يعودوا إلى فعل الجاهلية والكفر، فقال: «ليس منا من دعا إلى عصبية»[٥].

وفي دعوة الإسلام السمحة إلى عدم التعصب، نقتدي برسول الله ﷺ، الذي قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[٦]، وقال: «خذوا عني مناسككم»[٧].

ولقد طبق سلفنا روح التسامح وعدم التعصب، فرأينا الإمام الشافعي عندما صلى في مسجد الإمام أبي حنيفة، ولم يقنت بعد الاعتدال من الركعة الثانية في صلاة الصبح، قيل له: أليس القنوت سنة عندك؟! أجاب قائلًا: لا أخالف أبا حنيفة وأنا في حضرته، فنراه لم يتعصب لرأيه؛ بل سار على رأي الإمام أبي حنيفة.

وها هو الإمام مالك عندما طلب منه الخليفة كتابًا يتحاشى فيه شدائد عبد الله بن عمر، ورُخَص عبد الله بن عباس، وشواذ عبد الله بن مسعود، ويقصد إلى أواسط العلم، فلما كتب (الموطأ) ووافقه أئمة عصره عليه، وأراد الخليفة أن يلزم الناس به، قال الإمام مالك: لا يا أمير المؤمنين؛ إن أصحاب رسول الله ﷺ انتشروا في الأمصار، وعند بعضهم ما ليس عند الآخر، فدع الناس وما اختاروا مما يناسب عصرهم ومصرهم، ما داموا لم يصادموا نصًّا من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ.

ثم قال: إن اختلاف العلماء رحمة الله بهذه الأمة، كل يرى ما صح عنده، وكل على هدى، وكل يريد وجه الله.

إن الرجوع إلى القرآن والسنة فيه توحيد للصف ومعالجة للخلاف، وما كان من عند الله، ومن كتاب الله فلا خلاف فيه، وما كان من عند غير الله ففيه الخلاف، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

وقد أرشدنا الله -تعالى- عند التنازع أن نرد الأمر إلى الله والرسول، حيث قال سبحانه: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ (النساء: ٥٩).

وهكذا وضحت الشريعة الإسلامية أهمية التقريب بين المذاهب، ونبذ التفرق والاختلاف، لتتحد الأمة ولا تتفرق، وبالله التوفيق.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم: ١٨٤٨.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه، من حديث جبير بن مطعم -رضي الله عنه-، برقم: ٥١٢١.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، من حديث مالك بن الحويرث -رضي الله عنه- برقم: ٦٠٠٨.
(٧) سنن النسائي، عن جابر بن عبد الله، رقم: ٣٠٦٢.